بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الرعد وهي مكية.

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

{المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة الرعد(١)].

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة ابتدأت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: {وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ} أي: يا محمد {مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: {وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن سورة الرعد: "**وهي مكية**"، هو قول جمهور أهل العلم، وهذا هو الأقرب، ومن أهل العلم من قال: إنها نزلت بالمدينة، وبعضهم قال: إنها نازلة في مكة سوى آيتين، والسورة التي نزلت قبل الهجرة هي مكية، ولو نزل شيء في مكة بعد الهجرة فإنه يكون من قبيل المدني وليس من قبيل المكي، ومن القواعد في هذا الباب: أن السورة النازلة في مكة الأصل أن جميع الآيات فيها نازلة في مكة إلا لدليل، وأن السورة النازلة في المدينة الأصل أن جميع الآيات التي فيها نازلة في المدينة إلا لدليل، والاستثناءات التي يذكرها المفسرون عادة، يقولون: إلا آية كذا، في كثير من الأحيان يكون مرجع ذلك النظر إلى المعنى، وهذا فيه نظر، فإذا كانت الآية مثلاً تتحدث عن اليهود، قالوا: هذه السورة مكية إلا الآية الفلانية فإنها مدنية، مع أنه لا إشكال أن تأتي السورة المكية متحدِّثاً فيها عن اليهود، كما أنهم يذكرون هذا أحياناً بناء على معنى لاح لهم في الآية من حكم فهموه منها، مع أن الآية تحتمل هذا كما تحتمل غيره، فقول الله -تبارك وتعالى-: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى(١٤-١٥)]، هذه السورة مكية، ففهم بعضهم منها أن {تَزَكَّى} يعني: أخرج زكاة الفطر، {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ} يعني: التكبير للعيد، {فَصَلَّى} يعني: صلاة العيد، قالوا: وزكاة الفطر والجهر، ورفع الصوت بالتكبير، وصلاة العيد كل ذلك ما شرع إلا في المدينة، فقالوا: هذه الآية مدنية، من سورة مكية، وهذا الكلام فيه نظر؛ لأن معنى الآية غير هذا، ولأن الآية قد تنزل متحدثة عن أمر أو عن حكم قبل وقوعه، فلو فرضنا أن هذا هو المعنى، مع أنه ليس كذلك، فإنه يطبق عليه ما سبق أن الآية تنزل متحدثة عن أمر قبل وقوعه، وهذا موجود في القرآن، وما ذكروه في قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [سورة الكوثر(٢)]، مع أن هذه السورة مكية، لكن قالوا: في قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَانْحَرْ} المقصود صلاة العيد –عيد الأضحى- والنحر يعني الهدي والأضاحي، وهذا المعنى قد لا يكون هو المراد بالآية، وإنما الآية تأمر بالإخلاص في كل الأعمال: في الصلاة، كقوله: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الأنعام(١٦٢)]، والنسيكة: هي الذبيحة، فانحر أي اذبح لله ولا تذبح لغير الله -عز وجل- من الأصنام والمعبودات ونحو هذا.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة**"، وأقرب هذه الأقوال -والعلم عند الله -عز وجل- هو القول بأن هذه الحروف هي من حروف المعجم، ولا معنى لها في نفسها، ولا يقال: يوجد في القرآن شيء لا معنى له، فالقرآن ليس به حشو، والمقصود: أن هذه حروف مبانٍ وليست بحروف معانٍ، فحروف المعاني مثل: حروف الجر مثلاً، "في، إلى، عن، على"، فالنحاة يقولون: لا معنى لها في نفسها، وإنما تربط بين أجزاء الكلام، لكن الأمر ليس كذلك، فلها معنى في نفسها، فعلى تدل على العلو أو الاستعلاء، وفي تدل على الظرفية، وهكذا، والقسم الثاني هو حروف المباني التي تكون منها الكلمات، فالزاي من زيد، الزاي والياء والدال، هذه إذا أفردت ليس لها معنى في نفسها، فهذه الحروف المقطعة ليس لها معنى في نفسها، وإنما تدل على معنى، والابتداء بها يدل على الإعجاز، وأن هذا القرآن قد ركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، فهو يتحداهم أن يأتوا بمثله، وأنزله على سبعة أحرف، سبعة أوجه من وجوه التغاير، وكل ذلك بالغ في الإعجاز غايته، وهم يعجزون عن محاكاته والإتيان بمثله، ولذلك تجد إذا ذكرتْ هذه الحروف المقطعة ذكر بعدها القرآن، {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة(٢)]، يذكر الكتاب، يذكر الوحي والتنزيل وما شابه ذلك، إشارة إلى هذا المعنى، {الم * اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} [سورة آل عمران(١-٣)] وهكذا.

وقال في هذه السورة: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن قوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} يعني: القرآن وأن ما ذكر بعده من صفته، نفس القرآن، {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ}، ومن أهل العلم من السلف من يقول: إن الجملة الأولى {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} ليس المقصود بها القرآن، بناء على أن العطف يقتضي المغايرة، فيكون معنى قوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: الكتب التي نزلت على الأنبياء قبلكم، ثم عطف عليه القرآن، فقال: {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ}، فهذا هو القرآن، فلا يكون بهذا الاعتبار من قبيل عطف الصفات، وإنما هذا العطف عطف تغاير، فالأول غير الثاني، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والذين قالوا -كالحافظ ابن كثير- بأن هذا من قبيل عطف الصفات قالوا: إن الصفات تأتي متتابعة تارة بالعطف بذكر حرف العطف وتارة بحذفه، كما قال الله -عز وجل-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى(١-٤)]، فهذا كله يعود إلى موصوف واحد، فهذا من باب عطف الصفات.

إلى الملِك القَرْم وابن الهُمام *** وليث الكتيبة في المزدَحم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقول ابن كثير {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} يعني: القرآن، {وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ} يعني: هو القرآن، فكل ذلك من صفته، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، فذلك يرجع إلى القرآن، والله -عز وجل- سمى هذا القرآن كتاباً، ولا يستشكل هذا بأنه في ذلك الحين لم يكن القرآن مكتوباً، ولم ينزل في كتاب، فالمراد بقوله -تبارك وتعالى- في أول سورة البقرة: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} أنه القرآن قطعاً، ومن تتبع موارد هذه اللفظة في القرآن فإن الذي يترجح -والله تعالى أعلم- أن المراد بالكتاب هو القرآن، إلا لقرينة أو دليل يدل على ذلك، والعطف هنا ليس دليلاً.

وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ} كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} [سورة الرعد(٢)].

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض، وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبُعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} الآية.

وقوله: {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى. وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [سورة الحـــج(٦٥)]، فعلى هذا يكون قوله: {تَرَوْنَهَا} تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، قولان مشهوران للمفسرين، القول الأول: أن الله رفع السماء بغير عمد نراها، فقوله -تبارك وتعالى-: {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} يحتمل أن الله رفعها بغير عمد مرئية، يعني لها عمد لكنها غير مرئية، فيكون الضمير في قوله: {تَرَوْنَهَا} عائداً إلى العمد، بغير عمد تُرى، وقيل: العمد هو قدرته -تبارك وتعالى-، وقيل: لها عمد لكنها لا تبصر بالأعين، أو أن الضمير في قوله: {تَرَوْنَهَا} عائد إلى السماء، فالله خلقها من غير عمد كما نراها ونشاهدها، وكل واحد من القولين قال به طائفة من السلف، فالآية تحتمل المعنيين، فمن قال بأن الضمير يرجع إلى العمد، قال: هذا دليل على القدرة، فهذه عمد غير مرئية، وهذا أمر غير معهود للناس، ومن قال بأن الضمير عائد إلى السماء، قال: هذا أدل على القدرة، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، باعتبار أن هذا السقف العظيم الهائل لا يقوم على أعمدة، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يمسكه، فهو يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه -سبحانه وتعالى-، وهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعنى الثاني هو الأقرب، وهو المتبادر إلى الذهن، ولا يقال: إن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهي العمد، فإن السياق وما يمكن أن تفسر به الآية من القرآن يدل على رجحان المعنى الآخر، وهو أن السماء ليس لها عمد أصلاً، ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يقول: لا نتكلم في هذا، وإنما نقول كما قال الله -عز وجل- إنه خلق السماء بغير عمد نراها، فهي كما نشاهد ليس لها أعمدة، سواء كان الأمر كما نشاهد ليس لها أعمدة أصلاً، أو كان لها أعمدة لا تُبصَر، فكل هذا من دلائل قدرته وعظمته ووحدانيته -سبحانه وتعالى-، ولا شك أن هذا القول أسلم، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في السموات: إن ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وأن سمكها مسيرة خمسمائة عام، إلى آخره. هذا الحديث الوارد في هذا المعنى لا يصح، "المسافات التي بين كل سماء وسماء خمسمائة عام"، الحديث لا يصح، لكن لا شك أنه بين كل سماء وسماء يوجد مسافة، وأن السماوات ليست منطبقة على بعضها، هذا أمر مقطوع به، وحديث المعراج يدل على ذلك، وأن لكل سماء من يسكنها من الملائكة، لكن يبقى النظر في الأرض، فالله -تبارك وتعالى- أخبر أنه خلق سبع سماوات قال: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [سورة الطلاق(١٢)]، فالأرض سبع طبقات، ولا يقال هل هذه الطبقات منفصلة كل طبقة عن الأخرى أو متصلة ملتصقة، هذا لا علم لنا به فلا نخوض فيه، وما ورد فيه في بعض المرويات بأن كل أرض فيها من يسكنها، وأن فيها من الأنبياء كأنبيائنا، إلى آخره، كل هذا لا يصح فيه شيء، -فالله تعالى أعلم- هل هي ملتصقة أو منفصلة، لكن الله -عز وجل- قال: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}، وهكذا ما يذكره أهل علم الأرض من أن هذه الطبقات هي: الطبقة القشرة، الطبقة الصخرية، ثم الطبقة المنصهرة، ... إلى النواة، هذا الكلام لا تفسر به طبقات الأرض السبع، وما يذكر في هذا إنما هو نظريات وليس عندهم فيه برهان، وهم يقرون بذلك، ومن قال بأن المقصود بهذه الطبقات الأرضية سبعة أفلاك، غير صحيح، وإنما بعضها فوق بعض، ويدل على هذا أدلة، منها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((طوّقه إلى سبع أرضين))[١] في من غصب شبراً من الأرض، وكذلك النصوص الواردة التي يذكر فيها أحياناً الخسف، ((فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة))[٢]، أي: في الأرض.

وقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} تقدم تفسيره في سورة الأعراف وأنه يُمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

تُمر كما جاءت من غير تحريف أو تكييف، ويفسر المعنى، فكلمة "علا" في كلام العرب بمعنى استوى، وتأتي بمعنى علا وارتفع، فالاستواء علو خاص، استواؤه -تبارك وتعالى- على العرش هو أحد الأدلة الدالة على علوه -تبارك وتعالى-، فيفسر الاستواء بالعلو والارتفاع.

وقوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} [سورة يـــس(٣٨)] وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد

---

١ - رواه مسلم من حديث عروة -رضي الله عنه- برقم (١٦١٠)، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها.

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٥٤٥٢)، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، ومسلم برقم (٢٠٨٨)، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما يكون عن العرش؛ لأنه -على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة- قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، بمعنى ذللهما، فهما يسيران بهذه المنازل، وهذا السير المنضبط غاية الانضباط، لما قدره الله -عز وجل- وقضاه من مصالح العالم، فيتعاقب الليل والنهار، ويحصل التعاقب بين الفصول في السنة، إلى غير ذلك من المنافع، {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى}، الحافظ ابن كثير هنا قال: "**أي يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة**"، فهذا السير للشمس والقمر بهذه الطريقة المنتظمة غاية الانتظام، تخرج من المشرق ثم تغرب من جهة المغرب في كل يوم بهذا الانتظام العجيب الدقيق، كل ذلك إلى وقت معلوم، وهو وقت قيام الساعة، فيحصل التغير لهذه النجوم والأفلاك، وتتكدر النجوم وتكور الشمس وتُجمع مع القمر ويلقيان في النار، فتتغير أحوال العالم العلوي والعالم السفلي، وهذا عليه عامة أهل العلم من المفسرين، ومن أهل العلم من قال بأن المقصود في الدنيا، {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى}، والمقصود به منازل الشمس ومنازل القمر، فمنازل الشمس تكون في سنة، ومنازل القمر تكون في شهر، يبدأ القمر من أول ليلة في منزلة ثم الليلة الثانية في منزلة، وهكذا في ثمان وعشرين منزلة، والذي عليه عامة السلف فمن بعدهم أن المقصود {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} أي: يوم القيامة، فإذا جاء يوم القيامة توقف هذا الجريان، وتغيرت هذه الأحوال التي نشاهدها.

وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة.

وقوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}، وقيل: إن مستقرهما تحت العرش، الله -عز وجل- قال: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}، المستقر: يفسر بأنها تسجد تحت العرش، كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن ذلك في الشمس وليس القمر، والله -تبارك وتعالى- قرن بينهما في المسير في هذه الآية، والجريان، قال: {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى}، فلا تفسر -والله تعالى أعلم- هذه الآية بالسجود تحت العرش، والأجل في قوله: {لِأَجَلٍ مُسَمًّى} أي: قيام الساعة، والله أعلم.

وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت.

والجريان ليس فقط للشمس والقمر كما هو معلوم، فالنجوم كذلك، فخص الله تبارك وتعالى الشمس والقمر دون سائر الكواكب والنجوم لظهورهما وعظم منافعهما مقارنة بغيرهما -والله أعلم-.

فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [سورة فصلت(٣٧)]، **مع أنه صرح بذلك بقوله: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** [سورة الأعراف(٥٤)]، **وقوله: {يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأكل إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد(٣-٤)].

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ} أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، {مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}[سورة هود(٤٠)] **أي: من كل شكل صنفان، {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} أي: جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يَتفكرون} أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، {مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} أي: من كل شكل صنفان**"، الزوج يطلق على الاثنين، فالرجل وامرأته زوجان، ويقال لكل واحد مزاوج: زوج، فالمرأة زوج، وبعلها زوج، المرأة تقول: هذا زوجي، والرجل يقول: هذه زوجي، على الأفصح في اللغة والأشهر، ويصح أن يقال: زوجتي، وإن كان قليلاً في الاستعمال في لغة العرب، فهذه الكلمة -كلمة الزوج- تطلق على الاثنين، يقال: هذا زوج من الآدميين، يعني الرجل والمرأة، وهذا زوج من الطيور، يعني الذكر والأنثى، ويقال للواحد منهما المزاوج للآخر، فهذه الكلمة تأتي لهذا وهذا في كلام العرب، والمراد بالزوج في قوله: {مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} -والله تعالى أعلم- الواحد؛ ولذا ذكر بعده ما يوضحه ويبينه فقال: {اثْنَيْنِ}، والمحترزات في القرآن والقيود تأتي في كل موضع بحسبه، تارة تكون لدفع توهم، مثل دفع توهم الإفراد، نحو كلمة "زوج" تأتي للواحد المزاوج للآخر، وتأتي للاثنين، فقال الله تعالى: {مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}، يقول الحافظ: "**من كل شكل صنفان**"، وعليه عامة المفسرين من السلف فمن بعدهم، والمراد صنفان مثل الحلو والحامض في الثمار، والبرودة والحرارة، واليبوسة والرطوبة، والسواد والبياض في الألوان، ويدخل في ذلك الذكر والأنثى، لكنْ عامةُ المفسرين ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حملوا الزوجين على الذكر والأنثى، وإنما جعلوا ذلك بمعنى الصنفين، إلا قليل منهم كالفراء، فإنه فسر ذلك بالذكر والأنثى.

وقوله: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} أي: أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيّبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، هكذا روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه.

قوله: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ}، متجاورات: يعني متقاربات متدانيات، وقال أهل العلم: هي مع تقاربها مختلفة، ومتفاوتة غاية التفاوت، فهذه أرض طيبة، وهذه أرض سباخ لا تنبت، أو أن هذه الأرض أرض سهلية وهذه أرض صخرية، وذلك التنوع والتفاوت يدل على قوة الله -تبارك وتعالى-، أو كان ذلك التنوع في ألوانها، فهذه لونها أحمر وهذه لونها أبيض، وهذه تضرب إلى السواد كالحرار، وهذه جبال بيضاء، وقال بعض أهل العلم في معنى الآية: إنها متجاورات وتسقى بماء واحد لكن ثمارها تختلف غاية الاختلاف، فالتفاوت ليس في نفس الأرض، فهذه رملية وهذه أرض زراعية، هذه يخرج منها هذا اللون من الثمار، وهذه يخرج منها هذا اللون من الثمار، والأرض متقاربة متلاصقة، والماء واحد، وتخرج منها صنوف الثمار، لم يخرج الثمر صبة واحدة، بلون واحد وطعم واحد، مع أنها ليست متباعدة، ليست هذه في الجنوب، وهذه في الشمال مثلاً، فهذه الأرض تلاصق هذه، هذه متقاربة، قطع متجاورات، هذه فيها نخيل، وهذه فيها أعناب، أو هذه فيها هذا الصنف من العنب، فهي مع تقاربها واتحاد سقيها إلا أن ثمارها جاءت متفاوتة غاية التفاوت، وبعض أهل العلم فسره بمعنى آخر، قال: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} أي: وغير متجاورات، وجعل ذلك من باب الاكتفاء، أي أنه ذكر أحد المتقابلين وسكت عن الآخر للعلم به، كقوله تعالى: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل(٨١)] يعني: والبرد، فتركه لأنه معلوم، فالشاهد أنهم قالوا: ومن الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات، ولا يخلو من بعد، وليس فيه كبير معنى فيما يتعلق بالمقصود من بيان قدرة الله -عز وجل-.

وقوله: {وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} مرفوعين.

قراءة الرفع قرأ بها ابن كثير وحفص وأبو عمرو من السبعة، قال الحافظ -رحمه الله-: "**أن تكون عاطفة على جنات، فيكون {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} مرفوعين**"، أي أن قوله: {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ} معطوف على الجنات، في الأرض قطع متجاورات، وفي الأرض جنات، وفي الأرض زرع ونخيل، هذا على قراءة الرفع {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ}، وعلى قراءة الجر {وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ} يكون معطوفاً على الأعناب، فهنا يقول: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنّاتٌ مّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ}، جنات من الأعناب والزروع والنخيل، ووسّط هنا الزرع بين النخيل والأعناب - ذكره في الوسط- بناءً -والله تعالى أعلم- على الغالب في الواقع، فالزروع عادة تكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بينها، ولا تكون في مزرعة -غالباً- مستقلة، وإنما تجعل هذه الزروع بين النخيل والأعناب، فوسّطها في الذكر مراعاة لهذا، والله تعالى أعلم.

والقراءتان إذا كان لكل واحدة معنى فهما بمنزلة الآيتين.

ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لعمر -رضي الله تعالى عنه-: ((أمَا شعرتَ أن عم الرجل صنو أبيه؟))[1].

الصنو يطلق على المِثل، وفسر البعض قوله: {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} بالتماثل، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- وسّع المعنى، فجعل ذلك في النخيل وفي غير النخيل مما يكون متفرعاً كالرمان والتين، فهذه الفروع والأغصان في كل منها تجد هذه الثمار، فجعل كل ذلك من قبيل الصنوان، والذي عليه عبارات السلف وكلام المفسرين أن ذلك في النخيل، فالنخيل الذي يكون أصله واحداً يقال له: صنوان، والنخلة المنفردة غير صنوان، ويوجد من النخيل ما يرجع إلى أصل واحد، تجد النخلتين وأحياناً الثلاث وأحياناً الأربع تتفرع من أصل واحد، فهذا صنوان، فكلام أهل العلم الذي وقفت عليه، أنهم يجعلون ذلك في النخيل، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- جعل ذلك في النخيل وفيما -أيضاً- يكون متفرعاً بهذه الطريقة أو ما يشبهها، و كلمة "صنوان" تأتي مراداً بها المثنى، وتأتي مراداً بها الجمع، ولا إشكال في هذا.

وقوله: {يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} قال: ((الدقل، والفارسي، والحلو، والحامض))[2]**، رواه الترمذي وقال: حسن غريب.**

قرأ عاصم وابن عامر بالياء، {يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ}، وقرأه الباقون بالتاء {تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ}، وقوله تعالى: {وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ}، الجنات جمع جنة، وهي مؤنث، قال: {وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ}، فالزرع مذكر، وكل هذه القراءات متواترة، ولا إشكال فيها، ويمكن أن يقال: {يُسْقَى} يعني: الزرع وما ذكر معه من النباتات والأشجار والبساتين، وإذا قيل: "تسقى" يعني: هذه الأعناب وهذه النخيل والجنات، قال: "{وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} **قال: ((الدَّقَل، والفارسي، والحلو، والحامض))**، الدقَل هو الرديء من التمر، وقد جاء في الأثر في قراءة القرآن هذا كنثر الدقل[3]، والفارسي

---

١ - رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٢٣٢٤)، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها.

٢ - رواه الترمذي برقم (٣١١٨)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الرعد، وحسنه الألباني.

٣ - رواه أبو داود موقوفاً على ابن مسعود -رضي الله عنه- برقم (١٣٩٦)، أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب تحزيب القرآن، وأحمد في المسند (٧٨/٧)، برقم (٣٩٦٨)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٢٦٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نوع من أنواع التمر، رجح بعضهم أن يكون المقصود به البرني، وقالوا: إن أصل كلمة "برني" فارسية، وهو أجود أنواع التمر في المدنية، فهو في غاية الحلاوة وهو أصفر مدوّر.

أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عَفِص، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى.

العفوصة بمعنى المرارة.

وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

هناك أشياء تنبت بطبيعتها، فإذا خرجتَ من هذه البلاد القاحلة الجرداء الصحراء، إلى بلاد مثل إفريقيا أو إلى بلاد أسيوية أو نحوها، تجد كثيراً من ألوان الأشجار المثمرة تخرج بطبيعتها، بإخراج الله -عز وجل- لها من غير إنبات الإنسان، وعلى شواطئ المحيطات، تجد أشجار جوز الهند على مد البصر، وتجد أنواع الثمر تخرج من غير إنبات الإنسان لها، وتتفاوت غاية التفاوت، تتفاوت في جودتها، وفي أنواع الثمار الخارجة منها، وهي تسقى بماء واحد وعلى أرض واحدة، فهذا صنف وهذا صنف، والصنف الواحد تجد أن ثماره تتفاوت، فهذا كله يدل على قدرته -سبحانه وتعالى-.

{وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنّا تُرَاباً أَإِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأغْلاَلُ فِيَ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ} [سورة الرعد(٥)].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِنْ تَعْجَبْ} من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكوّنها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هُم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: {أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}.

قوله: {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ}، أي: من إنكارهم للبعث، وتكذيبهم بالمعاد، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن قوله: {وَإِن تَعْجَبْ} المراد به: وإن تعجب من تكذيبهم لك في نبوتك ورسالتك وهم يعلمون أنك الصادق الأمين، وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- قال: إن المراد {وَإِن تَعْجَبْ} يعني: وإن تعجب من عبادتهم للأصنام، وصرف العبادة إلى ما لا ينفعهم ولا يغني ولا يدفع عنهم تأليههم هذه الأحجار، {فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنّا تُرَاباً}، إلى آخره، ولا يبعد أن يكون المراد بذلك الإطلاق، فإن هذا أسلوب عربي، يقال: وإن تعجب فعجب كذا، ولا يكون هناك مقدر معيّن، وإنما المقصود بيان حال هذا الشيء المتعجب منه، وأنه أمر لا يتصور وقوعه وصدوره من عاقل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالعجب من قولهم: {أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف:٣٣]، **ثم نعت المكذبين بهذا فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ} أي: يسحبون بها في النار {وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} أي: ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.**

قوله: {وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ}، أصل الغَل هو ما يربط به العنق مع اليدين، فهذا يقال له غَل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقال قتادة: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ}[سورة الرعد(٨)] أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً، وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنها- بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: ((إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب))[1]، الحديث بتمامه.

وقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [سورة الرعد(٩)] أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء، {الْكَبِيرُ} الذي هو أكبر من كل شيء، {الْمُتَعَالِ} أي: على كل شيء، {قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} فقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

{سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىَ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ}[سورة الرعد(١٠-١١)].

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كقوله: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [سورة طـــه(٧)]، وقال: {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}[سورة النمل(٢٥)]، قالت عائشة -رضي الله عنها-: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[سورة المجادلة(١)]، وقوله {وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ} أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، {وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} أي: ظاهر ماشٍ في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: {أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ} الآية. وقوله تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة يونس(٦١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه البخاري من حديث أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- برقم (٦٩٤٢)، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [سورة الإسراء(١١٠)]، ومسلم برقم (٩٢٣)، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله -تبارك وتعالى-: {سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}، فسره بعض السلف بالتصرف في شئونه، والتقلب في أحواله، فالله -تبارك وتعالى- يعلم من القول السر وأخفى، يستوي عنده السر والعلانية في أحوال الناس، وتجلياتهم وخفائهم، واستتارهم عن الأعين، يستوي عنده من يتقلب ظاهراً أمام الناس منكشفاً، يرونه ويرون فعله وتقلبه، وتصرفه في أحواله، وشئونه جلية بينهم، كما أنه -تبارك وتعالى- يعلم من هو سارب بالليل، أي: مستخف ومستتر لا تراه العيون، ولا يطلع عليه إلا الله جل جلاله، فيستوي عنده الغيب والشهادة، والسر والعلانية، فالله يعلم أحوال الإنسان جميعاً، ولا حاجة لتخصيص ذلك كما قال بعضهم: إن السارب: يعني من دخل في السراب، فالمقصود من كان مستخفياً عن العيون، فالله -عز وجل- يراه ويطلع عليه، والمقصود من هذا جميعاً أن الإنسان يراقب ربه في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فإن الله يستوي عنده السر والعلانية، هذا هو المعنى.

وقوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات.

الضمير في قوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ}، يرجع إلى المستخفي بالليل والسارب بالنهار كما قال ابن جرير -رحمه الله-، وفسر المستخفي بالليل بالذي يستخفي ويستتر بمعصية الله -عز وجل-، مع أن ظاهر الآية العموم، يستوي عند الله -عز وجل- الإنسان في كل أحواله، فهو سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وابن جرير -رحمه الله- خصه بالعمل السيئ في الخلوة، فيقول: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} أي: لهذا السارب {مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}؛ لأنه فسر المعقبات بالحرس من الآدميين، يعني له حرس وجلاوزة يمنعونه من أن يصل إليه أهل الإيمان فيغيروا عليه ما هو فيه من المنكر والشر والفساد، فيكون المعنى عند أبي جعفر بن جرير -رحمه الله- هكذا، وفسرها ابن جرير -رحمه الله- بالأمراء والعظماء الذين يقيمون على معصية الله -عز وجل- ويتمنعون بما لهم من الجند، فلا يغير ذلك عليهم، {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} يعني: بزعمه، وعلى قوله هذا يكون المعنى مترابطاً، وفسرها رحمه الله بهذه الطريقة، {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} أي: أنهم بزعمه يدفعون عنه أمر الله وقضاءه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وظاهر الآية العموم، وإذا حملت على هذا يكون {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} أي: الإنسان، الذي تحدث الله -عز وجل- عنه بقوله: {سَوَآءٌ مِّنْكُمْ} أيها الناس، {مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}، {وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} أي: ظاهر، فيكون المعنى {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ}: جمع معقبة، والمعقبة تقال لمن يحصل بينهم التعاقب، هؤلاء لهم وقت وهؤلاء لهم وقت، كما يقال: هؤلاء لهم نوبة وهؤلاء لهم نوبة، يأتون في أوقات متفاوتة، ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار))[٢]، فهذه معقبات، {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} أي: الإنسان، {مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}، فالإنسان جعل اللهُ -عز وجل- عليه الحفظة الكاتبين، كما أن الله -تبارك وتعالى- جعل ملائكة

---

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٥٣٠)، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم برقم (٦٣٢)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتعاقبون لحفظه، وكل إنسان وكل الله -عز وجل- به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن، فالملك له لمة بالقلب، والشيطان كذلك، فالشيطان يدعوه إلى الشر، والملك يأمره بالخير، وهؤلاء المعقبات يدفعون عنه الآفات، ويدفعون عنه ما قد تقصده الشياطين من إيصال الأذى إليه، فلا تتخطفه الشياطين، ولا يصلون إليه بسوء إلا إذا جاء قدر الله -عز وجل- خلي بين العبد، وقد ذكر بعض السلف أن الشياطين بالمراصد لبني آدم، فلو تركوا معه لتخطفوه وأوصلوا إليه كل أذى، وهذا شيء مشاهد، فكثير من الناس يبتلون بالسحر، ويرقون ويجدد لهم، فما يحصل للإنسان مما يعتبره من المكاره والآفات، من حوادث، ومن أذى يصيبه، فتخطئه هذه الأمور، وينجيه الله -عز وجل- من هذه المصائب والبلايا، وذلك بأن قيض الله -عز وجل- له معقبات من الملائكة يدفعون عنه، فإذا جاء أمر الله -عز وجل- وقضاؤه خلي بين العبد، فوقع به حتى لو كان محافظاً على أذكار الصباح والمساء، فإنه إذا جاء قدر الله -عز وجل- فلابد أن يقع، لكن هذا من فعل الأسباب، فالمقصود {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ}، هي المتناوبات، وهي الملائكة، جمع معقبة، وجاءت بالتأنيث إما لأن الجماعة من الملائكة يقال لها: معقبة، وتجمع على معقبات في كلام العرب، وإما للمبالغة، لكثرة تعاقبها، مثل التاء في نسّابة، وعلّامة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-.

ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون))[٣].

وروى الإمام أحمد -رحمه الله- عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة))، قالوا: وإياك يارسول الله؟ قال: ((وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير))[٤]**، انفرد بإخراجه مسلم.**

وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}.

---

٣ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٥٣٠)، وبرقم (٣٠٥١)، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم برقم (٦٣٢)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، ولفظهما: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)).

٤ - رواه مسلم برقم (٢٨١٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا، وأحمد في المسند (٣٥١/٦)، برقم (٣٨٠٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} "**حافظان وكاتبان**" إلى آخره، ما يذكره السلف من عبارات فهي -والله تعالى أعلم- ترجع إلى معنى قوله: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: فلا يصل إليه ما يكره، وهذا يأتي من المعاني التي ذكرها أهل العلم، يتأتى هذا على قول ابن جرير: أي في زعمه هو، ووهمه وظنه، وذلك إذا فسرت المعقبات بالجند والحرس، {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} يحوطونه ويظن أنه بهذه الحماية يسلم من قدر الله وما أراد الله إيقاعه به، ولا يصل إليه أهل الإيمان بالتغيير والإنكار، والمعنى الثاني مما يتمشى مع تفسيرها بأنهم يحفظونه من أمر الله فلا يصل إليه ما يكره، لأنهم يحفظونه من أمر الله إذا عصى، كما قال بعض السلف: بالاستمهال والاستغفار، فلا يعاجل بالعقوبة، يستغفرون له، يطلبون المغفرة، لعله يراجع ويتوب، {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: من عقابه.

فحفظهم حاصل وناشئ من أمر الله -عز وجل- وليس من عند أنفسهم، فالله وكلهم بذلك، وقوله: {مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: عن أمر الله، يعني أن حفظهم نتج عن أمر الله لهم بحفظه، هم منفذون منقادون لأمر الله -تبارك وتعالى-، فوكلهم بذلك، وهم لا يعصون الله ما أمرهم، أو {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: بأمر الله؛ لأن حروف الجر تتناوب، فحفظهم واقع بأمر الله -عز وجل- لهم بحفظه، وقول من قال: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} أي: من أجل أمر الله يرجع لنفس المعنى، فالله أمرهم بحفظه فهم يقومون بذلك، وليس حفظهم من عند أنفسهم وإنما الله تعالى قد وكلهم بذلك، فهو ناشئ عن أمر الله أو بأمر الله أو من أمر الله أو من أجل أمر الله، كل هذا يرجع إلى معنىً واحد، وهو الأقرب -والله تعالى-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [(١٢-١٣) سورة الرعد].

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق الماء، وقوله: {خَوْفًا وَطَمَعًا} قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله، {وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: {السَّحَابَ الثِّقَالَ} الذي فيه الماء، قال: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} كقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}.

وروى الإمام أحمد عن إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي -رضي الله تعالى عنه- قال: كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي، وسع له فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال له الشيخ: سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك))[1] والمراد ــ والله أعلم ــ أن نطقها الرعد وضحكها البرق.

وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً، ولا آنس منه منطقاً، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنقَل العلامة ابن كثير في قوله –تبارك وتعالى-: {خَوْفًا وَطَمَعًا} قول قتادة: "**خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله**"، وهذا القول الذي قاله قتادة قال به جماعة من أهل العلم من المفسرين، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- ومن أهل العلم من قال: {خَوْفًا} من الصواعق، {وَطَمَعًا} في المطر، وهذه المعاني صحيحة، وهذا أشبه ما يكون بالتفسير بالمثال، ومن المعلوم أن المسافر يحصل له الخوف إذا رأى البرق؛ وذلك أنه أمارة على المطر، والمطر إذا حصل مع السفر فإن المسافر يتأذى به، لاسيما في تلك الأزمان، وأما الطمع فيحصل للمقيم بالمطر، وكذلك يحصل الخوف للجميع من الصواعق، ويحصل الطمع ببركة المطر.

---

[1] - رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٢ / ٢٥٥)، برقم (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة، برقم (١٦٦٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما ما نقل عن ابن عباس –رضي الله عنهما- أنه كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق الماء، فهذا القول ليس هو الظاهر المتبادر، وذلك لحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: أقبلت يهود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: ((ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله))، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: ((زجره بالسحاب، إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر...))[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} أي: يسبح متلبساً بحمد الله -تبارك وتعالى- وإذا فُسر الرعد بأنه ملك من الملائكة يسبح بحمد الله –تبارك وتعالى- فهذا ظاهر لا إشكال فيه، وإذا فُسر بالصوت الذي يصدر من السحاب، فهذا أيضاً ظاهر لا إشكال فيه؛ لأن الله يقول: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [(٤٤) سورة الإسراء]، فـ"إن" نافية بمعنى "ما" والمعنى: ما من شيء، و"شيء" نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فكل شيء يسبح بحمد الله –تبارك وتعالى- تسبيحاً يليق به.

وروى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سمع الرعد والصواعق قال: ((اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك))[٣]، ورواه الترمذي والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه.

هذا الحديث وإن حسنه بعض أهل العلم إلا أن إسناده لا يخلو من ضعف، ففيه الحجاج بن أرطأة، وفيه أبو مطر فيه جهالة.

وعن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: "سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض"[٤]، رواه مالك في الموطأ، والبخاري في كتاب الأدب.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال ربكم -عز وجل-: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولمَا أسمعتهم صوت الرعد))[٥].

هذا الحديث لا يخلو من ضعف وفي سنده رجل يقال له صدقة بن موسى، وأما ما جاء عن عبد الله بن الزبير فهو ثابت صحيح .

وقوله تعالى: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ} [(١٣) سورة الرعد] أي: يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء؛ ولهذا تكثر في آخر الزمان.

---

[٢] - رواه الترمذي، كتاب التفسير، تفسير سورة الرعد (٥ / ٢٩٤)، برقم (٣١١٧)، وصححه الألباني في السلسلة، برقم (١٨٧٢).

[٣] - رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا سمع الرعد (٥ / ٥٠٣)، برقم (٣٤٥٠)، وأحمد (١٠ / ٤٧)، برقم (٥٧٦٣)، وضعفه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١ / ٣٤٣)، برقم (١٥٢١).

[٤] - رواه مالك في الموطأ (٥ / ١٤٤٤)، برقم (٣٦٤١).

[٥] - رواه أحمد في مسنده (١٤ / ٣٢٧)، برقم (٨٧٠٨)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢ / ٢٨٧)، برقم (٨٨٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله –تبارك وتعالى-: {فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء} لا يلزم أن يكون ذلك على سبيل النقمة والعقوبة، فقد يصيب –سبحانه وتعالى- بهذه الصواعق بعض الدواب، وقد تصيب هذه الصواعق بعض الناس ولا يكون ذلك نقمة.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن أربد بن قيس بن جزء بن جليد بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فانتهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم))، قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمتُ من بعدك؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل)) قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا))، فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يمنعك الله))، فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فنعطيهم الدية. قال أربد: أفعل، فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكلمه، وسل أربد السيف، فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سل السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرأى أربدَ وما يصنع، فانصرف عنهما، فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى إذا كانا بالحرة ــ حرة واقم ــ نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فقالا: اشخصا يا عدوي الله، لعنكما الله، فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكتائب، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربدَ صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس قرحته في حلقة ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية، يرغب أن يموت في بيتها!، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} إلى قوله: {وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ} الآية[٦]. وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري مختصراً.

قوله: يرغب أن يموت في بيتها، أي: يرغب عن أن يموت، ومنه قوله –تبارك وتعالى-: {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} [(١٢٧) سورة النساء]، أي: ترغبون عن نكاحهن، فكان يأنف أن يموت في بيتها ويتنزه عن ذلك، فقد تعجب مما حل به.

---

[٦] - المعجم الكبير للطبراني (٩ / ١٨٧)، برقم (١٠٦٠٨)،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والثابت هو ما ورد في صحيح البخاري[٧] دون هذا السياق وهذا التفصيل، والحديث بهذا السياق الطويل، وهذه التفصيلات فيه ضعف، وفي إسناده عبد العزيز بن عمران.

وقد وردت رواية أخرى أصح من هذه الرواية، وهي من حديث أنس – رضي الله عنه - قال: بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - مرة رجلاً إلى رجل من فراعنة العرب أن ادعه لي، قال: يا رسول الله إنه أعتى من ذلك، قال: اذهب إليه فادعه، قال: فأتاه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعوك، قال: أرسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو؟ فرجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك وأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بما قال، قال: ((فارجع إليه فادعه)) فرجع فأعاد عليه المقالة الأولى، فرد عليه مثل الجواب فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم – فأخبره، فقال: ((ارجع إليه فادعه)) فرجع إليه فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما إذ بعث الله سحابة حيال رأسه فرعدت ووقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، وأنزل الله - عز و جل - {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [(١٣) سورة الرعد]"[٨]

وقوله: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ} أي: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

قوله: {يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ} أي: يجادلون في توحيده، كما قال – تبارك وتعالى -: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [(٥) سورة ص]، وكما قال الله -عز وجل-: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [(٣٠) سورة الرعد]، وكقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [(٦٠) سورة الفرقان.

{وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} قال ابن جرير: شديدةٌ مماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} [(٥٠-٥١) سورة النمل]، وعن علي -رضي الله تعالى عنه- {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} أي: شديد الأخذ.

قوله: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} قال ابن جرير: "أي شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه وتمادى، وهذه الآية كقوله – تبارك وتعالى -: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}" [(٥٠) سورة النمل].

وقال بعض أهل العلم: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}، أي: شديد الكيد، وبعضهم فسرها بالشدة والقوة، وقال بعضهم: {شَدِيدُ الْمِحَالِ}، أي: شديد الأخذ، وقال بعضهم: أي: شديد العداوة لمن عاداه، وقال بعضهم: شديد العقوبة إذا عاقب، وهذه الألفاظ متقاربة، والله أعلم.

قوله: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} [(١٤) سورة الرعد]، قال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ} قال: التوحيد، رواه ابن جرير، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ} لا إله إلا الله، {وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ} الآية، أي:

---

٧ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع (٤ / ١٥٠١)، برقم (٣٨٦٤).

٨ - سنن النسائي الكبرى (٦ / ٣٧٠)، برقم: (١١٢٥٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله {كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ}، قال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: {كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ} يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

قول الله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} أنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وإن لم يوجب لداعيه بها ثواباً فإنه يستحقها لذاته، فهو أهلٌ أن يعبد وحده ويدعى وحده ويقصد ويشكر ويحمد ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، ويصمد إليه، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا معرفة وذوقاً وحالا صح له مقام التبتل والتجريد المحض، وقد فسر السلف دعوة الحق بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ومرادهم هذا المعنى.

فقال علي -رضي الله تعالى عنه- دعوة الحق: التوحيد، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله وحده، ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} [(١٤) سورة الرعد]، نقل عن علي -رضي الله تعالى عنه- قال: {كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ} كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟، وقال مجاهد: كباسط كفيه يدعو الماء بلسانه، يشير إليه فلا يأتيه، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- ويقول ابن كثير: "**ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة**" ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء لا ينتفعون.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: {كباسط كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} كالذي يقبض على الماء بيده، يريد القبض عليه، فلا يحصل له شيء، فالماء ليس كالأجسام والأجرام التي يمكن قبضها باليد، فهو يحاول قبضه ولا يستطيع، كما قال الشاعر:

فأصبحتُ مما كان بيني وبينها***من الود مثلَ القابضِ الماءَ باليد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(مسألة)

الرعد إذا أطلق يمكن أن يراد به الملَك، ويمكن أن يراد به الصوت المعروف، فالآية تحتمل هذا وهذا، فإذا فُسر بالملَك فهذا لا إشكال فيه، ويكون قوله: {وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [(١٣) سورة الرعد] من باب عطف العام على الخاص.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [سورة الرعد(١٥)].

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً على الكافرين، {وَظِلالُهُم بِالْغُدُوّ} أي: البكور، {وَالآصَالِ}: وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ} [سورة النحل(٤٨)] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} اختلف العلماء في المراد بالسجود في هذه الآية، هل المراد به {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [سورة النحل:٤٩]، "ما" هذه للعموم، ولم يستثن ولم يذكر ما يدل على تبعيض أو تخصيص، وإنما قال: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}، و"من" هذه للعموم، و"ما" تكون لغير العاقل، وقوله: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} فيه تغليب للعقلاء على غير العقلاء؛ لأن غيرهم يكون تبعاً لهم، أو لأنهم الأشرف، ومن أهل العلم من استشكل سجود الكفار، هل هم داخلون في هذا العموم، وما المراد بقوله: {طَوْعاً وَكَرْهاً}؟ فالمؤمن يسجد طوعاً هذا لا إشكال فيه، لكن من الذي يسجد كرهاً؟ قال بعض أهل العلم: إن العموم في قوله: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، على عمومه، وبعضهم يقول: مخصوص، والأدق من هذا أن يقال: إن هذا عام مراد به الخصوص، فمن قال: إنه عام مخصوص قال: إن الذي يخصصه أو يبيّن أنه مخصص في هذه الآية: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}، لكن في الآية الأخرى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} [سورة الحـــج:١٨]، إلى أن قال: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ} [سورة الحـــج:١٨]، ذكر سجود الشمس والقمر والدواب ثم قال في الناس ولم يعمم: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، ومعلوم أن لفظة كثير ليست من ألفاظ العموم، فمن أهل العلم من قال: إن هذا العموم في هذه الآية مخصص، خصصه قوله: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، ويمكن أن يقال: إنه عام مراد به الخصوص، وهذه الآية بيّنت ذلك، وقوله -تبارك وتعالى-: {طَوْعاً وَكَرْهاً}، والكفار لا يسجدون لله -عز وجل- السجود المعروف؛ لأن السجود معناه في اللغة الخضوع، ومعناه الشرعي: وضع الجبهة على الأرض، هذا في أجلى صوره وحالاته، ويطلق على الركوع كما في قوله -تبارك وتعالى-: {ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً} [سورة البقرة:٥٨]، فليس المقصود أنهم يدخلون وجباههم على الأرض، وإنما يدخلون في حال الانحناء والركوع تواضعاً لله -عز وجل- وشكراً وخضوعاً، فالشاهد: هذه الآية بهذا العموم الظاهر من أهل العلم من فسر السجود فيها بالمعنى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللغوي، قالوا: السجود {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ} أي: يخضع؛ ليدخل الكفار في ذلك، فالكل خاضع لعظمته -تبارك وتعالى-، فأمر الله نافذ في الجميع، وهم تحت سلطانه وقهره، فالكافر يجري عليه أمر الله -تبارك وتعالى- وقدره لا يستطيع أن يخرج من ذلك طرفة عين، فهذا هو السجود بمعناه اللغوي، الجميع يخضع لعظمته جل جلاله، وإنما ألجأ إلى هذا القول -يعني التفسير بالمعنى اللغوي- هو كيف يسجد الكافر والآية ظاهرها العموم؟، فإما أن نقول: هذا العموم غير مراد، فيخرج منه الكافر، ونحمل السجود على المعنى الشرعي في الأصل، في ما يكون سجوده وضع الجبهة على الأرض، ولكلٍّ سجود يليق به، فالشجر له سجود والدواب كذلك فلكل شيء سجود يليق به، وسجود المؤمنين بوضع الجبهة على الأرض، فإما أن نقول بأن هذا العموم غير مراد؛ لأن الكافر لا يسجد، ونكون فسرنا السجود بالمعنى الشرعي، وإما أن نقول بأن هذه الآية على ظاهرها في العموم، وأن المقصود بالسجود الخضوع، وهذا تفسير بالمعنى اللغوي، والقاعدة المعروفة: أن الألفاظ الشرعية تحمل على المعنى الشرعي أولاً، فإن لم يوجد فالعرف في عرف المخاطبين، في زمن نزول القرآن، فإن لم يوجد فاللغوي، فإذا فسرنا السجود بالخضوع فهذا خلاف القاعدة، فمن فسر السجود بأنه الخضوع قال: إن أهل الإيمان يخضعون لأمر الله طواعية وينقادون، وأما الكفار فيجري عليهم قضاؤه وقدره، وإن كانوا يكرهون ذلك، أو لا يخضعون طواعية لربهم وخالقهم جل جلاله، فأمْر الله جارٍ فيهم، "كرهاً"، ومن أهل العلم من فسر "كرهاً": بأن أهل الإيمان يسجدون طواعية، والذين يسجدون كرهاً هم أهل النفاق، فهم كفار في الباطن، فهم يسجدون وهم يكرهون السجود؛ من أجل أن لا يقام حكم الله فيهم، فهم ما دخلوا في الإسلام ظاهراً إلا من أجل حقن دمائهم وإحراز أموالهم، فهم يسجدون ويكرهون، وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً على الكافرين**"، فهذا مجمل، وكأنه في أوله يشير إلى أن المقصود به الخضوع، فخضوع المؤمن يزيد على خضوع الكفار بأنه طواعية، ومن خضوع المؤمن وضع الجبهة على الأرض في السجود، وأما الكافر فهو وإن كان لا يسجد السجود الحقيقي، ولكن أمْر الله واقع عليه وقدره نافذ فيه، فهو خاضع لأمر الله -تبارك وتعالى-، قال: {وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}، أي: أن ظلالهم تسجد تبعاً لهم، فإذا سجد الإنسان سجد ظله معه، وخص الغدو والآصال؛ لأن الظل يكون فيها أطول وأظهر، مثلاً في وقت الظهر فإنه بعد الزوال يكون الظل قليلاً، لا يظهر إذا سجد الإنسان كما يكون في العصر وفي أول النهار أيضاً، ومن أهل العلم من يقول: {وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} قال: لا يبعد أن الله -عز وجل- يعطي الظل إدراكاً يليق به، فالظل يسجد، وليس المقصود أنه يسجد تبعاً للساجد، على القول الأول أنه تبع، الظل يتبع صاحبه فإذا سجد سجد الظل، على القول الثاني لا، وإنما المراد أن الظل يسجد، سواء كان الإنسان يسجد لله -عز وجل- أو لا يسجد، والله -عز وجل- أخبر عن هذا، {يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ} [سورة النحل:٤٨]، فانتقال الظل من ناحية إلى ناحية هذا سجوده، فكل شيء يسجد لجلاله وعظمته -تبارك وتعالى-، وإنما الذي يبقى لا يسجد السجود الشرعي المعروف هو الكافر، وإلا فالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كل ذلك يسجد لله -عز وجل-، {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} هذه أشهر الأقوال في معناه، ومن أهل العلم من فسره بتفسير أبعد من هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قليلاً، قال: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}، قالوا: إن المقصود أن السجود حق لله وواجب، {وَلِلّهِ يَسْجُدُ} يعني: ولله يجب أن يسجد {مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، وفسرها بعضهم بدخول الكافر في الإسلام بالسيف، من الناس من يقاد إلى الجنة بالسلاسل، فقد يدخل بعض الناس الإسلام في البداية خوفاً من القتل، ثم بعد ذلك يستقر الإيمان في قلبه، ويحسن إسلامه، فيدخل الجنة، وهذا المعنى فيه بعد، والله تعالى أعلم.

وقوله: {بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} الغدو: أول النهار، والآصال: بعد العصر، وأصدق ما يقع عليه لفظ الأصيل، آصال جمع أُصُل، وهو ما يكون بعد اصفرار الشمس، الأصل في الأصيل يطلق على ما بعد العصر، وأصدق ما يصدق عليه هذا اللفظ هو بعد الاصفرار، إذا اصفرت الشمس.

وقفتُ فيها أصيلاناً أسائلها *** عيّتْ جواباً وما بالربع من أحد

فهذا هو الأصيل الذي يكون وقت ذبول الشمس، وهو أحسن وقت للذكر، -والله تعالى أعلم-.

{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[سورة الرعد(١٦)].

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً، أي لا تُحصّل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ}[سورة الرعد:١٦]، أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟، أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء، ولا يماثله، ولا ند له، ولا عدْل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سورة سبأ:٢٣]، **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ}** [سورة النجم:٢٦] **الآية، وقال {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}** [سورة مريم(٩٣-٩٥)]، **فإذا كان الجميع عبيداً فلِمَ يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة مَن سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}** [سورة الكهف:٤٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ}، فـــ "أم" هذه هي المنقطعة، وهي هنا بمعنى "بل" والهمزة، فيكون معنى قوله: {أَمْ جَعَلُوا} بل أجعلوا.

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ} [سورة الرعد:١٧].

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً} أي: مطراً، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها.

هذه الجملة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ضرورية في فهم المثَل، فبعض أهل العلم يقول: إن عامة الأمثال في القرآن حينما تفسر فإنه ينظر إليها باعتبار المثل بكليته، لا بالنظر إلى أجزائه، فالمثل المركب الذي فيه قضايا متعددة، إذا أردت أن تتبع كل جملة منه وتركبها على معنى فيما يقابله أو فيما ضُرب له فإن هذا قد يشكل في بعض المواضع، وبعض أهل العلم يقول: هذا غير مراد، وما يفهم من عموم هذا التركيب فهو المراد بالمثل، ومن أهل العلم من يفسر ذلك بأجزائه، فتقع الإشكالات والخلاف، مثل قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}[سورة البقرة:١٧]، إذا فسر تفسيراً مجملاً يقال: هذا مثل ضربه الله لهؤلاء، بأنه من استضاء بشيء ثم بعد ذلك انطفأ هذا النور وذهب، فهذا حال هؤلاء الناس، وإذا فسر كل هذا يقال: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ} السين والتاء للطلب {اسْتَوْقَدَ} فكأنهم استعاروها من غيرهم، هؤلاء أهل النفاق، فهم ليسوا على الإيمان حقيقة، استعاروا ذلك من غيرهم، استمدوه، وإلا ما هو نابع من قلوبهم، ادعوه، وتظاهروا به، {اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ}، هذه النار {اسْتَوْقَدَ نَاراً} فاستمتع بها في التدفئة والإضاءة، وهذا حال هؤلاء الكفار حينما أظهروا الإيمان انتفعوا به انتفاعاً مؤقتاً فحقنوا الدماء، وأحرزوا الأموال، قال بعده: {ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ}، ذهب النور والضياء فبقوا في ظلمة وهي ظلمة الكفر، وبقي من النار -بعدما ذهب الضوء أو النور- الحرارة والإحراق، ويقول الله -عز وجل-: إنه: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً} هذا الماء الذي أنزله أي: المطر يقابل الوحي، فهو غيث للقلوب كما أن المطر غيث للأرض، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} كما أن المطر تسيل به الأودية في الأرض، كل وادٍ بحسبه من الصغر والكبر، فكذا القلوب وما تستوعبه من العلم بما أنزل الله -عز وجل-، هي كالأودية، كما وَصف أصحابَ النبي -صلى الله عليه وسلم- بعضُ من أدركهم من التابعين، فقال: أدركتُ أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- كالإخاذ، والإخاذ يسع العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لوسعهم، من أهل العلم من يفسره بما ينتفع به الإنسان من هذا الوحي، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}، فأبو بكر -رضي الله تعالى عنه- إيمانه يوزن بإيمان الأمة، وفسر بالعلم وتفاوت الناس في العلم بما أنزل الله، وبما يحصل لهم من الانتفاع به، فتفاوتوا في الاستفادة من هذا الوحي الذي أنزله الله -تبارك وتعالى-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً}، فالسيل الذي سالت به الأودية يحمل معه من الزبد والأشياء التي تعلوه من رغوة أو ما يحمله السيل معه {زَبَداً رَّابِياً} أي: مرتفعاً، فهكذا الوحي إذا نزل غسل القلوب وحكّ ما فيها وأزال ما فيها من الشُّبه والشكوك، فتذهب وتضمحل وتتلاشى، إذا جاءت شمس النبوة والرسالة تبددت الظلمات والأوهام والتصورات الفاسدة، فهذا المثل الأول، فهذه الطريقة التي يفسر فيها المثل بأجزائه، كل جزء يركب على جزء مما يقابله مما ضرب له المثل، وهذه الطريقة فيها صعوبة وفيها إشكال، والعلماء لا يتفقون على التفسير فيها، يعني إذا فسروا بهذه الطريقة اختلفوا، ما المقصود بالزبد الرابي، وما المقصود بالماء الذي أنزله من السماء مثلاً، أو ما المقصود بالأودية؟، وإذا فسر تفسيراً إجمالياً فإن ذلك يكون أوضح في المعنى، وهكذا المثل الثاني، هذا يسمونه المثل المائي، والآخر المثل الناري، وفي البقرة {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} هذا المثل الناري، والثاني: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة البقرة:١٩] هذا المثل المائي، فقال: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، فهذا المثل الناري، {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ} طلب حلية أو متاع، الحلية من الذهب والفضة، {أَوْ مَتَاعٍ} من الحديد والنحاس والمعادن الأخرى، تُصنع منه قِدرٌ أو آلة أو ملعقة أو سكين أو نحو ذلك، {زَبَدٌ مِّثْلُهُ} يعلوه كذلك، فهذا المعدن إذا عرض على النار تحركت الشوائب التي بداخله؛ لأنه حينما يكون عنصراً في الأرض تخالطه الشوائب، فإذا عرض على النار تحركت هذه الشوائب فيه كما تتحرك الشكوك والأوهام إذا نزل الوحي، فتتجلي وتزول وتضمحل فكذلك هذه الشوائب التي في هذا المعدن تذهب وتتلاشى، ويبقى خالصه، فالمثل يفسره بعض أهل العلم بهذا المعنى أو بهذه الطريقة.

{فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً} أي: **فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عالٍ عليه، هذا مثل.**

قوله: {فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً} يمكن أن يفسر على العموم بأن ذلك ما تبدده شمس النبوة، وما يزيله الوحي بأنواره الكاشفة، من جميع الأباطيل التي يتشبث بها الناس من عبادة غير الله –عزوجل- كعبادة الأصنام والأوثان والجن، وكذلك ما عندهم من التصورات الفاسدة عن الكون والحياة، بعيداً عن الوحي والاستضاءة به، وألوان الجهالات التي يعيشون عليها، سواء في أوضاعهم الاجتماعية، أو في علاقتهم بربهم -تبارك وتعالى-، أو غير ذلك من الأباطيل التي يعيشون عليها، ويقتاتون عليها، فإذا أشرقت شمس الرسالة بددت هذه الظلمات جميعاً وانجلت، ولهذا يقول الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: إن السحر يكثر إذا تلاشت أنوار الرسالة والنبوة، فإذا سطعت في مكان تلاشت هذه الأباطيل، فالسحر إنما يعشش ويكثر إذا صار في ضعف في الدعوة، والاستضاءة بنور الوحي، والأماكن التي يحصل فيها الوعي والعلم تبدد كل الأباطيل والأوهام، وهذا مشاهد في البلدان التي انتشر فيها علم الكتاب والسنة والعقيدة الصحيحة من غيرها.

وقوله: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ} الآية، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية، أي ليجعل حلية نحاس أو حديد.

هذه القراءة {يُوقِدُونَ} هي قراءة حمزة والكسائي وحفص من السبعة، وقرأ الباقون بالتاء {وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ}.

وقوله:"**أي ليجعل حلية نحاس أو حديد**" الصحيح أنه: ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية: أي ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه، {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} أي: لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: {وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}، كقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}.

قوله: **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً}**، يقال: جفأ الوادي بمعنى ألقى، جفأ غثاءً بمعنى ألقى الغثاء، فيضمحل ويتلاشى مع جريان الماء فيعلق بأطرافه ونواحيه بالشجر والحجر ويبقى ما ينفع الناس، والترّهات والأباطيل وبنيات الطريق، كل ذلك يذهب، وهذا عام في كل ما لا ينفع، فالعلوم الفلسفية والعلوم الكلامية التي اشتغل الناس بها وقتاً طويلاً اندرست وذهبت وبقي: قال الله، وقال رسوله -صلى الله عليه وسلم-، **{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً}** فالزبد وإن كان ظاهراً على الماء، فهو كعلو الدخان، كما قال ابن القيم -رحمه الله-:

فإذا اجتمعت الخصوم وصيحوا *** فاثبت فصيحتهم كمثل دخان

يرقى إلى الأرج الرفيع وبعده *** يهوي إلى قعر الحضيض الدان

فالذي يستقر ويثبت هو الماء الذي تحت الزبد، ما ينفع الناس يمكث في الأرض، والزبد لا ينتفع به الإنسان ولا الحيوان مع أنه يعلو الماء، وكذا كل ألوان الباطل مهما كان مبهرجاً، فإن العبرة بالحقائق، وما عدا ذلك فإنه سرعان ما يضمحل ويزول، ومهما حاول أهل الباطل أن يزينوا باطلهم فإن ذلك يتلاشى، والذي يبقى هو الحق، والحق أحق أن يتبع، وكم حاول أهل الباطل إخماد الحق وطمس معالمه، ولكن باطلهم هو الذي يذهب والحق يبقى، وانظر ما جرى على الإسلام منذ بعث الله -عز وجل- محمداً -صلى الله عليه وسلم-، يقول ابن القيم -رحمه الله-:

والله لولا اللهُ حافظ دينه *** لتهدمت منه قوى الأركان

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} الآية، هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: {فَأَمَّا الزَّبَدُ}: وهو الشك، {فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}: وهو اليقين.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر قوله -تبارك وتعالى-: **{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}** بالعلم، وابن عباس -رضي الله عنهما- فسره باليقين والإيمان، وهذا كله حق.

{وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ضرب -سبحانه وتعالى- في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: نارياً ومائياً، وهما قوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ} [سورة البقرة:١٧] الآية، ثم قال: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} [سورة البقرة:١٩] الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين (أحدهما) قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ} [سورة النور:٣٩] الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في الصحيحين: فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أيْ ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً. ثم قال تعالى في المثل الآخر: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ} [سورة النور:٤٠] الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، ورعوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به))[1]، فهذا مثل مائي. وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجزكم عن النار، هلمّ عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها))[2]. وأخرجاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري.

قوله تبارك وتعالى: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} عام في كل شيء في الكتب المؤلفة والأفكار والمعتقدات وغيرها، ومن نظر إلى الكتب والحواشي التي كتبت في التفسير يجد أن أكثرها لم تطبع أين ذهبت واضمحلت؟!، وانظر إلى تفسير ابن كثير مثلاً كم من الناس انتفعوا به وكم طبعات طبع، وتفسير ابن جرير -رحمه الله-، ما ينفع الناس يبقى، وكل شيء سيأخذ حجمه الحقيقي حتى الناس والأشخاص، فرب شخص ينتفش في وقت من الأوقات وفي النهاية يأخذ حجمه الحقيقي، ومهما ينبهر الناس بكتاب في وقت من الأوقات ويتناقلوه ويعكفوا عليه فبعد مدة يأخذ حجمه الحقيقي، ومثل هذا في الطوائف، فالمعتزلة حكموا في أيام الدولة العباسية وأرادوا حمل الناس على مذهبهم الباطل وفعلوا كل ما يستطيعون، ومن أسروه من المسلمين لا يتركونه حتى يُمتحن في مسألة القرآن، ومات كثير من العلماء وهم في القيود، ثم اضمحلت المعتزلة، وكان الإمام أحمد -رحمه الله- يوصي ابنه عبد الله، ويقول له: إياك وبنيات الطريق، بنيات الطريق هذه الزوابع التي يجدها حيناً بعد حين، ينشغل بها بعض صغار النفوس، ولا

---

١ - رواه البخاري برقم (٧٩)، كتاب العلم، باب فضل من علِم وعلّم، ومسلم برقم (٢٢٨٢)، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بُعث به النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهدى والعلم.

٢ - رواه البخاري برقم (٦١١٨)، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ومسلم برقم (٢٢٨٤)، كتاب الفضائل، باب شفقته -صلى الله عليه وسلم- على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، وأحمد في المسند (٤٧٦/١٣)، برقم (٨١١٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون له هم التشمير عن ساعد الجد في أمور تضره ولا تنفعه في القيل والقال، والكلام في الناس، والوقيعة في أعراضهم، وتوزيع التهم عليهم، وما أشبه هذا، وللإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- كلام جيد، حيث قال: "قد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد ولكن في حق المؤمنين فقال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ} شبه الوحي لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما عظيماً كوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاءً وزبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فانه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يشاركها وهكذا: {يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، ثم ذكر المثل الناري فقال: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ} وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يسقى منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق"[٣].

وقال -رحمه الله تعالى-: "شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء؛ لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علماً كثيراً كواد عظيم يسع ماء كثيراً، وقلب صغير إنما يسع علماً قليلاً كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً، فقال: {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً} هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة، فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء، وأخبر سبحانه أنه رابٍ يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربتْ فوق القلوب وطغت فلا تستقر فيه بل تُجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبَه والناسَ من الهدى ودين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاءً، وما يعقل عن الله أمثالَه إلا العالمون.

ثم ضرب سبحانه لذلك مثلاً آخر فقال: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ} يعني: أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده، وضرب سبحانه مثلاً بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تُحيي القلوب كما تَحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها

---

٣ - انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٧٨)، والأمثال في القرآن الكريم (١٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما تحرق النار ما تلقى فيها، وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه، فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم، قال الله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [سورة العنكبوت:٤٣]"[٤].

فائدة:

يحمي الإنسان نفسه من الانجراف في الفتن والزوابع والأمور التي قد تصرفه عن الحق بأمرين اثنين لا بد منهما، وإن وُجد أحدهما دون الآخر فإن الإنسان على خطر، وهما:

الأمر الأول: التحقق بالعلم، بحيث يكون على بصيرة تنجلي له الشبهات، لا تتطلي عليه الأباطيل.

الأمر الثاني: أن يكون مخلصاً، ذا نيّة صالحة.

فالإنسان الذي ينجرف في هذه الفتن والشبهات والزوابع إما إنسان قل علمه فاتبع الباطل عن جهل يظنه حقاً، وإن كان له نية صالحة، فيوجد من أتباع الطوائف من قد يكون له نية في التقرب إلى الله تبارك وتعالى وعبادته وما أشبه ذلك، وإذا وُجد عنده علم لكن نيته فيها خلل فإنه يُخشى عليه أن يتبع الباطل، فربما يجد في نفسه شيئاً فيبحث له عن مخارج في الشريعة، كما جاء في بعض الآثار بأنه يبتدع لهم أشياء من أجل أن يتبع، والأمثلة في التاريخ كثيرة، والله -عز وجل- أخبر عن أقوام أنه أضلهم فقال: {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} [سورة الجاثية:٢٣] أضله على علم لها معنيان: الأول: أضله على علم أي: مِنه، مَن علم الله باستحقاقه للضلال، والثاني: أي على علم منه هو، أي: لم يكن ضلاله عن جهل، فاليهود ضلوا عن علم؛ لفساد القصد عندهم حسداً، وأبو طالب لم يكن يخفى عليه حال النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن خشي أن يعيّر، فهذا لفساد القصد، وكبراء المشركين الذين تكلموا بما يدل على أنهم يعرفون أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلا بد للإنسان من علم صحيح وقصد صحيح، فإذا اجتمع هذا مع هذا فهو طريق السلامة المحققة بإذن الله –عز وجل- مع كثرة الدعاء والابتهال إلى الله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

وقد يجتمع في الإنسان فساد القصد ونقص العلم، كما هو الواقع عند الصوفية، مرة سألت أحد الصوفية عن قول صاحب البردة: "ومِن علومك علم اللوح والقلم"، "مِن" للتبعيض فيكون المعنى أن من علوم النبي -صلى الله عليه وسلم- علم اللوح والقلم، فما بقي لله تبارك وتعالى؟ وهذا كفر بالله تبارك وتعالى، والله تبارك وتعالى يقول: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} [سورة النساء:٦٥]، وقوله: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [سورة النـــور:٥١]، فنتحاكم إلى الكتاب والسنة، أريد دليلا على هذا الكلام حتى أعتقده!، فقال: النبي -صلى الله عليه وسلم- لما عرج به إلى السماء أعطي حلاوة في السماء السابعة، فلما ذاقها وأكلها انجلى له ما بين العرش إلى الأرض السفلى.

---

٤ - انظر: مفتاح دار السعادة (٦١/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه أكذوبة عظيمة على أمر عظيم لا وجود لها في كتب السنة على الإطلاق، لا صحيحة ولا ضعيفة، فألجم وسكت ثم ذهب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٨) سورة الرعد].

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ} أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم {الْحُسْنَى} وهو الجزاء الحسن، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً}، وقال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}. وقوله: {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ} أي: لم يطيعوا الله، {لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} أي: في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، {أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ} أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قوله -تبارك وتعالى-: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} [(١٨) سورة الرعد]، الحسنى: يمكن أن تفسر بالجنة، كما قاله طائفة من السلف، ويؤيد هذا القول قوله -تبارك وتعالى-: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [(٢٦) سورة يونس]، فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

قوله: {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٨) سورة الرعد]، سوء الحساب هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الحساب السيئ، كما تقول: عظيم الأجر، وعظيم الثواب، أي: الثواب العظيم، والأجر العظيم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٨) سورة الرعد]، أصل المهاد هو ما يوطأ للصغير فيكون فراشاً ممهداً، فهؤلاء يكون مهادهم في النار.

{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [(١٩) سورة الرعد]، يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي {أُنزِلَ إِلَيْكَ} يا محمد {مِن رَبِّكَ} هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية، ولا لبس فيه، ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سورة الأنعام] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدقَ ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه ولا اتبعه.

كقوله تعالى: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}، وقال في هذه الآية الكريمة: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} [(٢٠-٢٣) سورة الرعد].

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ}، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة؛ فلهذا أمْرُهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [(٢٠) سورة الرعد]، الفرق بين العهد والميثاق: أن الميثاق عهد ولكنه مؤكَّد، فهو أخص من مطلق العهد.

وقد فسر بعض أهل العلم قوله –تبارك وتعالى-: {يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ} بالعهد الذي بينهم وبين الله –تبارك وتعالى- وما يتبع ذلك من العهود بينهم وبين الناس، وأما الميثاق فهو العهود المؤكدة بالأيمان.

وقال بعض أهل العلم: العهد هو جميع العهود التي تكون لله -عز وجل- وهي أوامره ونواهيه، ويدخل في ضمن ذلك ما التزمه العبد من عند نفسه كالنذر، وكالمعاهدة التي يجعلها بينه وبين الله، وأما الميثاق فهو ما أخذه الله على عباده حينما استخرجهم من ظهر أبيهم آدم -عليه الصلاة والسلام- فقد قال –تبارك وتعالى- {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [(١٧٢) سورة الأعراف].

والله –عز وجل- لا يحاسب بهذا الميثاق الذي أخذه على عباده لمّا أخرجهم من ظهر أبيهم آدم –عليه الصلاة والسلام- بل أودع فيهم الفطرة، وأرسل إليهم الرسل، وقال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء]، وهذا من كمال عدله -سبحانه وتعالى-.

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ} [(٢١) سورة الرعد]، قال ابن كثير: "**من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف**" ويدخل في هذه الآية كل ما يمكن أن تحتمله، كالتقرب إلى الله –تبارك وتعالى- وطاعة النبي – صلى الله عليه وسلم -

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتوقيره وتعزيره، وصلة الوالدين وبرهم، وصلة الأرحام والقرابات، والقيام بحق الزوجات والجيران، وغيرها.

{وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} [(٢٢) سورة الرعد] أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله -عز وجل- ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، {وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ} بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي، {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أي: على الذي يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين، {سِرّاً وَعَلاَنِيَةً}.

قوله: {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} [(٢٢) سورة الرعد] ، أي: أن صبرهم لله، ووجه التقييد بقوله: {ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ}؛ لأن البعض يصبر تجلداً أمام الناس، حتى يثنوا عليه ويطروه بأنه صابر على المصيبة، ومن المعلوم أن الصبر عبادة قلبية، يقع فيها ما يقع في غيرها.

{سِرّاً وَعَلاَنِيَةً} أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [(٣٤-٣٥) سورة فصلت]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ} والعدن الإقامة.

قوله: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}، أي: يدفعون القبيح بالحسن، وهذه الآية كقوله – تبارك وتعالى-: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [(٣٤) سورة فصلت]، وقال بعض أهل العلم: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أي: يدفعون المعصية بالتوبة، وقال بعضهم: يدفعون الشر بالخير، ومنهم من قال: يدفعون المنكر بالمعروف، ومنهم من قال: يدفعون المعصية بالطاعة، وقد قال – تبارك وتعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [(١١٤) سورة هود].

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ} والعدن الإقامة، أي جنات إقامة يخلدون فيها.

وقوله: {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [(٢٣) سورة الرعد] أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بها حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [(٢١) سورة الطور] الآية.

وقوله: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [(٢٣-٢٤) سورة الرعد] أي: وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وروى الإمام أحمد -رحمه الله- عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخِيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب {سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}))[1].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه.

ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه.

فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والإنابة إليه، والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه، والاستكانة له والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين -صلوات الله وسلامه عليه-، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، ذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقّاء بأن نطعمهم مما نأكل، ونكسوهم مما نكتسي، ولا نكلفهم فوق طاقاتهم، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله، بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر، وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحى الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصلة، ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو آخِيَّة ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال: {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} [(٢٢) سورة الرعد] فلم يكتفِ منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

---

[1] - رواه أحمد (١١ / ١٣١)، برقم (٦٥٧٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهى الصلاة فقال: {وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ}، وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة، وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [(٤٥) سورة البقرة]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [(١٥٣) سورة البقرة].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم، ثم ذكر حالهم إذا جُهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرءون بالحسنة السيئة، فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}، وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [(١١٤) سورة هود]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أتبع السيئة الحسنة تمحها))[٢]، والتحقيق أن الآية تعم النوعين، والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها، فاشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ} [(١٢٥) سورة آل عمران]، وقوله: {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ} [(٩٠) سورة يوسف].

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران]، فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور[٣].

(مسألة)

{جَنَّاتِ عَدْنٍ} أي: جنات إقامة، فهم لا يخرجون منها ولا يموتون ولا يفارقونها، وقال بعض أهل العلم: في الجنة جنة يقال لها: جنة عدن، كما يوجد جنة يقال لها: جنة المأوى، وجنة الفردوس، والقول الأول هو الأقرب – والله تعالى أعلم-.

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب معاشرة الناس (٤ / ٣٥٥)، برقم (١٩٨٧)، وأحمد (٣٥ / ٢٨٤) برقم: (٢١٣٥٤).

٣ - عدة الصابرين (١ / ٢٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٢٥) سورة الرعد].

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء {يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ}، كما ثبت في الحديث: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[١]. وفي رواية ((وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر))[٢]؛ ولهذا قال: {أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ} وهي الإبعاد عن الرحمة، {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} وهي سوء العاقبة والمآل، {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

{اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [(٢٦) سورة الرعد] يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتِّر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون]، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [(٢٦) سورة الرعد]، كما قال: {قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [(٧٧) سورة النساء]، وقال: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [(١٦-١٧) سورة الأعلى].

وروى الإمام أحمد عن المستورد أخي بني فهر - رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع))[٣] وأشار بالسبابة، رواه مسلم في صحيحه، وفي الحديث الآخر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بجَدْيٍ أسكَّ ميت، والأسكّ الصغير الأذنين، فقال: ((والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه))[٤].

---

[١] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١ / ٢١)، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافقين (١ / ٧٨)، برقم (٥٩).

[٢] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١ / ٢١)، برقم (٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (١ / ٧٨)، برقم (٥٨).

[٣] - رواه مسلم (٤ / ٢١٩٣)، برقم (٢٨٥٨).

[٤] - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق (٤ / ٢٢٧٢)، برقم (٢٩٥٧)، بلفظ عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال أتحبون أنه لكم ؟ قالوا والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال: ((فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [(٢٧-٢٩) سورة الرعد].

يخبر تعالى عن قيل المشركين: {لَوْلا} أي: هلا {أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، كقولهم: {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ} [(٥) سورة الأنبياء]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث: إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحوّل لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروجٌ وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: ((بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة))[٥]؛ ولهذا قال لرسوله: {قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [(٢٧) سورة الرعد] أي: هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: {وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [(١٠١) سورة يونس]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس]، وقال: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [(١١١) سورة الأنعام]؛ ولهذا قال: {قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [(٢٧) سورة الرعد] أي: ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [(٢٨) سورة الرعد] أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} أي: هو حقيق بذلك.

وقوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [(٢٩) سورة الرعد] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: فرحٌ وقرةُ عين، وقال عكرمة: نِعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً، وقال في رواية: طوبى لهم: حسنى لهم، {وَحُسْنُ مَآبٍ}، أي: مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها.

وروى البخاري ومسلم جميعاً عن سهل بن سعد - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها))، قال: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري - رضي الله تعالى عنه - عن النبي

---

[٥] - رواه أحمد (٤ / ٦٠)، برقم (٢١٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمرَ السريع مائة عام ما يقطعها))[٦].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الله - عز وجل -: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر))[٧]، الحديث بطوله.

وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة، رواه ابن أبي حاتم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فما ذكره الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآيات هو في غاية الوضوح في المعنى، ولا يحتاج إلى مزيد إيضاح ومناقشة.

قوله - تبارك وتعالى -: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [(٢٩) سورة الرعد]، أقوال أهل العلم في تفسير {طُوبَى} أنها: خير لهم، أو نِعم ما لهم، أو غبطة لهم وفرح وقرة عين، أو أنها الحالة المستطابة، أو أنها الجنة، كل هذه المعاني بمعنى واحد.

وفسر بعض أهل العلم {طُوبَى} بأنها شجرة في الجنة، واستدلوا بحديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - : عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها))[٨]، وهذا القول أخص من القول بأن {طُوبَى} هي الجنة.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى- في تفسير قول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [(٢٨) سورة الرعد] الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف: الصدق طمأنينة والكذب ريبة، أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((البر ما اطمأن إليه القلب))[٩] أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه، وفي ذكر الله هاهنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله، ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه، فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت، ويروى هذا عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -.

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار (٥ / ٢٣٩٨)، برقم (٦١٨٦)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤ / ٢١٧٦)، برقم (٢٨٢٧)، واللفظ للبخاري.

٧ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤ / ١٩٩٤)، برقم (٢٥٧٧).

٨ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣ / ١١٨٧)، برقم (٣٠٧٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤ / ٢١٧٥)، برقم (٢٨٢٦).

٩ - رواه أحمد (٢٩ / ٥٢٧)، برقم (١٨٠٠١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئن، والقول الثاني: أن ذكر الله هاهنا القرآن وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [(٣٦) سورة الزخرف]، والصحيح: أن ذكره الذي أنزله على رسوله - وهو كتابه - من أعرض عنه قيض له شيطانا يضله ويصده عن السبيل، وهو يحسب أنه على هدى، وكذلك القولان أيضا في قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [(١٢٤) سورة طــه]، والصحيح: أنه ذكره الذي أنزله على رسوله -وهو كتابه-؛ ولهذا يقول المعرض عنه: {رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [(١٢٥-١٢٦) سورة طــه]، وأما تأويل من تأوله على الحلف، ففي غاية البعد عن المقصود، فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب والبر والفاجر، والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف، وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب[١٠]. انتهى.

قوله – تبارك وتعالى -: {أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [(٢٨) سورة الرعد] أي: بذكر العبد لربه يطمئن قلبه ويستريح ويسكن، وهذا أمر حاصل لا شك فيه.

وكلمة "ذكر"، مصدر، تأتي للفاعل وتأتي للمفعول، {أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ} فبذكر الله {تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}؛ فإذا ذكر العبد ربه اطمأنت نفسه وسكنت، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت))[١١].

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [(٣٠) سورة الرعد].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة {لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [(٣٠) سورة الرعد]، **أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى:** {تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ} [(٦٣) سورة النحل] الآية، **وقال تعالى:** {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [(٣٤) سورة الأنعام] **أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.**

---

[١٠] - انظر مدارج السالكين (٢ / ٥١٢).

[١١] - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل (٥ / ٢٣٥٣)، برقم (٦٠٤٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [(٣٠) سورة الرعد] أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن))[١٢].

قوله - تبارك وتعالى -: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [(٣٠) سورة الرعد] يحتمل أن يكون المعنى أنهم يكفرون بهذا الاسم ولا يؤمنون به، وقد كانوا يقولون: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، وقد قال الله – تبارك وتعالى– عنهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا*} [(٦٠) سورة الفرقان]، وهذه الآية تدل على أنهم كانوا ينكرون هذا الاسم إنكار مكابرة.

{قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} [(٣٠) سورة الرعد] أي: هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقر له بالربوبية والألوهية، هو ربي لا إله إلا هو {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي: في جميع أموري، {وَإِلَيْهِ مَتَابِ} أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

قوله: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [(٣٠) سورة الرعد]، تقديم العامل على المعمول يدل على الحصر، وقد أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن التوكل لا يصلح إلا لله -عز وجل- فلا يقال: أنا متوكل على الله ثم عليك.

---

[١٢] - رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء (٦ / ١٦٩)، برقم (٥٧٠٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الرعد (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف - رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [(٣٤-٣٥) سورة الرعد].

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: {لّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا}، أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، {وَلَعَذَابُ الآخرة} أي: المدخر مع هذا الخزي في الدنيا، {أَشَقّ} أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمتلاعنين: ((إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة))[1]. وهو كما قال - صلوات الله وسلامه عليه- فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [(٢٥-٢٦) سورة الفجر]، **وقال تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيرًا}** [(١١-١٥) سورة الفرقان]؛ **ولهذا قرن هذا بقوله: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}** [(٣٥) سورة الرعد] **أي: صفتها ونعتها، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}** [(٣٥) سورة الرعد]، **أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كقوله: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ}** [(١٥) سورة محمد] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [(٣٥) سورة الرعد] أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها، وأصل المثل في كلام العرب يطلق على الشبه وما في معناه، أي: صورة الشيء وصفته، والمقصود به هنا النعت والصفة، أي صفة الجنة التي وُعد المتقون.

وقوله: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت

---

[1] - رواه مسلم، كتاب اللعان، (٢ / ١١٣٠)، برقم (١٤٩٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: ((إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بَقِيَتْ الدنيا))[٢].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم جشاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس))[٣] **رواه مسلم، وروى الإمام أحمد والنسائي عن ثمامة بن عقبة، سمعت زيد بن أرقم - رضي الله تعالى عنه - قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم: تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: ((نعم، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة))، قال: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: ((تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه))**[٤]**. رواه الإمام أحمد والنسائي.**

هذا الحديث صحيح، وهو من كمال النعيم، فأين أهل الدنيا عن هذا النعيم؟ معلوم من قديم الزمن أن كثرة الأكل من المحامد؛ ولذلك يأكلون ما يفتح الشهية، أما في الجنة فيؤتى الرجل الواحد من أهل الجنة قوة مائة رجل.

وقد قال الله تعالى: {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [(٣٢-٣٣) سورة الواقعة]، وقال: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [(١٤) سورة الإنسان]، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [(٥٧) سورة النساء].

يذكر الظل في القرآن على أنه من نعيم الجنة، وكذلك الطلح، والمشهور من أقوال المفسرين أنه من شجر العضاه، وهو معروف في بلاد العرب، وأنه ليس الموز.

والله سبحانه وتعالى يذكر للعرب ما يلامس مشاعرهم، فيذكر الظل الممدود والطلح والنخيل والأعناب، ولم يذكر الله - تبارك وتعالى – البرتقال والتفاح وأنواع الفواكه غير الموجودة في بلاد العرب؛ لأنها ليست في بلادهم، وقد ذكر الله – تبارك وتعالى – في القرآن السماء والأرض والجمل والإبل، ولم يذكر لهم الفيل والزرافة؛ لأنها ليست في بلادهم.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار؛ ليرغب في الجنة ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: {تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [(٣٥) سورة الرعد]، كما قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [(٢٠) سورة الحشر].

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب رفع البصر إلى الإمام (١ / ٢٦١)، برقم (٧١٥)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي - صلى الله عليه وسلم - من أمر الجنة والنار (٣ / ٣٣)، برقم: (٢١٤٧).

[٣] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، (٤ / ٢١٨٠)، برقم (٢٨٣٥).

[٤] - رواه أحمد (٣٢ / ١٨)، برقم (١٩٢٦٩)، والنسائي، كتاب التفسير، سورة الشورى (٦ / ٤٥٤)، برقم (١١٤٧٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ} [(٣٦-٣٧) سورة الرعد].

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} وهم قائمون بمقتضاه، {يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ} أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] الآية، وقال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} [(١٠٧) سورة الإسراء] إلى قوله: {إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} [(١٠٨) سورة الإسراء] أي: إنْ كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد -صلى الله عليه وسلم- لَحَقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده.

قوله – تبارك وتعالى –: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} أي: قائمون بمقتضاه؛ لأنه ليس كل الذين أوتوا الكتاب يفرحون بما أوتيه النبي - صلى الله عليه وسلم - بل كثير من هؤلاء كذب به ورده كما هو معلوم، وهذا قول الحافظ ابن كثير – رحمه الله - .

وقال الحافظ ابن جرير – رحمه الله -: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}، أي: من أسلم منهم كعبد الله بن سلام والنجاشي، وقول الحافظ ابن كثير ليس ببعيد منه، وإن كان أوسع قليلاً.

وقال بعض أهل العلم: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} هم المسلمون، فمن دخلوا في الإسلام يفرحون بما ينزله الله عليك من القرآن، ويتلقونه بالقبول، ويعملون به، لكن هذا فيه بعد، وإذا أطلق أهل الكتاب فالأصل أنه يتوجه إلى أهل الكتب قبلنا، اليهود والنصارى.

{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا*} [(١٠٩) سورة الإسراء]، **وقوله: {وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ} [(٣٦) سورة الرعد] أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد: {وَمِنَ الْأَحْزَابِ} أي: اليهود والنصارى، {مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} أي: بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.**

قوله: {وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ} أي: ومن اليهود والنصارى من ينكر بعضه، وهذه الآية تخصيص لقوله – تبارك وتعالى -: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}، وقال بعض أهل العلم: {وَمِنَ الأَحْزَابِ} يعني من المشركين، ويكون المعنى: الذين آتاهم الله الكتاب، لعِلْمهم بالكتاب يفرحون بما أنزل إليك، ومن أهل الإشراك من ينكرون ما تأتيهم به من الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، ولا وجه لتخصيصه بأهل الإشراك.

وهذا كما قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ} [(١٩٩) سورة آل عمران].

{قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ} [(٣٦) سورة الرعد] أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، {إِلَيْهِ أَدْعُو} أي: إلى سبيله أدعو الناس، {وَإِلَيْهِ مَآبِ} أي: مرجعي ومصيري.

وقوله: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [(٣٧) سورة الرعد] أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكتاب المبين الواضح الجلي، الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [(٤٢) سورة فصلت].

وقوله: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم} [(٣٧) سورة الرعد]، أي: آراءهم، {بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ} أي: من الله سبحانه، {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ}، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [(٣٨-٣٩) سورة الرعد].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [(١١٠) سورة الكهف]، وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[٥].

وقوله: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} [(٣٨) سورة الرعد] أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله - عز وجل - يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [(٧٠) سورة الحج].

قوله: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}، قال ابن جرير – رحمه الله -: لكل أجل أمر قضاه، كتاب عنده قد كتبه، فالله - تبارك وتعالى- قد كتب مقادير الخلق في كتاب عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم -: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء))[٦].

(مسألة)

تمثيل الجنة بصورة بساتين وأشجار وأنهار داخل الحاسوب فيه هضم وغمط الجنة حقها ومنزلتها، فمهما صور من نعيم الدنيا فإن ذلك لا يقارب ما في الجنة إطلاقاً، كما جاءنا عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما– أنه قال: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء[٧]، وعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها))[٨] ، وعن البراء - رضي الله عنه - قال: أهدي للنبي - صلى الله عليه وسلم - ثوب حرير، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه، فقال

---

[٥] - رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥ / ١٩٤٩)، برقم (٤٧٧٦) ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مُؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (٢ / ١٠٢٠)، برقم (١٤٠١).

[٦] - رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام- (٤ / ٢٠٤٤)، برقم (٢٦٥٣)

[٧] - الترغيب والترهيب (٤ / ٣١٦).

[٨] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣ / ١١٨٧)، برقم (٣٠٧٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النبي - صلى الله عليه وسلم - ((أتعجبون من هذا ؟)) . قلنا: نعم، قال: ((مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا))[٩].

[٩] - رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من مس الحرير من غير لبس (٥ / ٢١٩٥)، برقم (٥٤٩٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل سعد بن معاذ -رضي الله عنه- (٤ / ١٩١٦)، برقم (٢٤٦٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com